كتاب

"قدّة الجمهوريّة" كتاب يعالج ملف إميل إدّه من حماية الكيان إلى هواجس الإستقلال والحدود

بين صورة "الخائن" التي رسختها بعض كتب التاريخ، وشخصية السياسي الذي انشغل مبكرا بمقومات الدولة وحدودها واستقلالها، تقف سيرة اميل اده أمام قراءة جديدة. كتاب يستعيد مسيرته بالوثائق والارشيف، متوقفا عند مشروعه للبنان، علاقته بفرنسا، ومواقفه من الاستقلال، ليعيد طرح السؤال عن الرجل وارثه السياسي

بدأ اميل اده مسيرته الوطنية في مطلع القرن العشرين، محاميا ومناضلا من اجل لبنان، قبل ان يصبح احد ابرز مهندسي مشروع "لبنان الكبير". تنقل بين رئاسة المجلس التمثيلي، والحكومة، والجمهورية، وخاض معارك سياسية حول الحدود والاستقلال وشكل الدولة، تاركا وراءه تجربة مثيرة للجدل تستحق اعادة قراءتها بعيدا من الاحكام الجاهزة.

في كتاب "اميل اده: قدّة الجمهورية اللبنانية"، يتوقف الكاتب الدكتور الكسندر أبي يونس عند محطات اساسية من هذه المسيرة، محاولا تفكيك الصورة التقليدية التي اختزلت الرجل في موقفه من الانتداب الفرنسي. فإده، وفق القراءة التي يقدمها الكتاب، لم يكن يتعامل مع قيام الدولة اللبنانية كحدث سياسي عابر، بل انطلق من رؤية تعتبر الجغرافيا والاقتصاد والمياه والمرافئ والسهول ركائز اساسية لاستمرار الكيان. من هنا جاءت مواقفه من توسيع الحدود، وتمسكه بالليطاني والمرافئ والمجالات الزراعية، فضلا عن نظرته المبكرة الى التحديات الاقليمية المحيطة بلبنان. وبين اخطاء التقدير السياسي وصواب الرؤى الاستراتيجية، تفتح سيرته نقاشا حول رجل سبق زمانه في قراءة مستقبل الجمهورية.

بين الوثيقة والرواية السياسية، يحاول الكتاب اعادة وضع اميل اده في سياقه التاريخي، بعيدا من الاحكام القطعية. فالرجل الذي اختلف مع خصومه في رؤيته للاستقلال وعلاقة لبنان بفرنسا، ظل منشغلا بهاجس حماية الكيان وتأمين مقومات استمراره، لتبقى تجربته مادة مفتوحة للنقاش واعادة التقييم.

"الامن العام" التقت الاستاذ المحاضر في الجامعة اللبنانية ومؤلف الكتاب الدكتور الكسندر أبي يونس.

الدكتور الكسندر أبي يونس.

كان يريد حدودا مائية اكثر للبنان

■ لماذا اخترت هذا العنوان وماذا يعني؟

□ كلمة "القدّة " استعملتها لتتناغم مع قافية "إده". والقَدّة هي الاداة التي يستخدمها "البلاط" حين يريد تسوية الارض أو حين يريد ضبط الاستقامة (السرود) بشكل صحيح. ما اعنيه من هذا العنوان هو أن اميل اده كان قادرا على "تجليس" الاوضاع في لبنان، تماما كما يقوم البلاط بتقويم البلاط بواسطة "القَدّة" التي يستخدمها.

■ كم عدد صفحات الكتاب والوقت الذي استغرقه؟

□ الكتاب يقع في 664 صفحة حجم A4، استغرق 5 سنوات من البحث في ارشيفات بكركي، فرنسا، الجامعة الاميركية (الارشيف البريطاني والصحف)، وجامعة الكسليك. ساهمت الجامعة اللبنانية ماديا في دعم مشروع الكتاب، وهي مشكورة على ذلك.

■ في كتابكم تحاولون اعادة قراءة شخصية اميل اده بعيدا من الصورة التقليدية التي تختصره كونه سياسيا مؤيدا للانتداب الفرنسي، ما الذي دفعكم الى اعادة فتح هذا الملف وما الذي اكتشفتموه في مسيرته ويستحق اعادة النقاش حوله؟

□ هذا الموضوع كان يراودني منذ ايام الدراسة المدرسية. ففي الصفوف المتوسطة والثانوية نتعلم تاريخ لبنان الحديث والمعاصر، وكانوا يدرسوننا ان اميل اده ظهر كخائن لانه تسلم السلطة خلال سجن رجالات الدولة. حينها اتخذوا قرارا بفصله من النيابة ومحاكمته، ثم اكتفوا بقرار فصله من النيابة فقط من دون المحاكمة. من ايام الدراسة في المدرسة صرت افكر: هل حقا اميل اده خائن؟ ولماذا تسلم السلطة خلال القاء القبض على رجالات الدولة الشرعيين وسجنهم في قلعة راشيا؟. هذا الموضوع لفت نظري كثيرا، بخاصة وان اميل اده من الشخصيات الوطنية المميزة التي لعبت دورا كبيرا جدا، فقد كان من مؤسسي دولة لبنان الكبير، والرئيس الوحيد الذي مر بالمناصب الثلاثة: كان رئيسا للمجلس النيابي (الذي كان يسمى قبل الدستور والجمهورية بالمجلس التمثيلي)، وكان رئيسا للحكومة، وكان رئيسا للجمهورية. تساءلت: شخصية لعبت كل هذه الادوار، هل يعقل ان تخطئ مثل هذا الخطأ؟ على الرغم من انه اخطأ التقدير في العام 1943 - وانا أقر بانه اخطأ التقدير- الا انني اردت معرفة الاسباب التي دفعته لتسلم السلطة، وهذا ما جعلني اؤلف كتابا عنه بدراسة موثقة استنادا الى ارشيف بكركي والارشيفات البريطانية والاميركية والفرنسية.

■ كان اميل اده من ابرز الشخصيات التي ساهمت في تأسيس دولة لبنان الكبير كما قلتم، لكنه في الوقت نفسه دخل في خلافات مع قوى سياسية وازنة حول شكل الدولة وحدودها، ما هو مشروعه الحقيقي للبنان، وهل كان يتعامل مع لبنان كدولة نهائية بحدودها ام كجزء من تصور اوسع للمنطقة؟

□ لفهم هذا الموضوع، يجب ان نتطرق لتاريخ اميل اده السياسي الذي بدا نضاله من اجل لبنان منذ عام 1909 كمحام، ودخل في جمعيات تطالب باستقلال لبنان. خلال الحرب العالمية الاولى، صدر امر من السلطنة العثمانية باعدامه، لكن والي بيروت العثماني كان صديقه، وعند وصول برقية القاء القبض عليه، قال له الوالي (بينما كانا يلعبان "البريدج" في نادي بيروت): "اهرب الليلة، لأن ◄

81 عاماً
تصميم. إنجاز. مثابرة

المقال

من يملك الذاكرة الوطنيّة؟

نشأ كثيرون منا على رواية واحدة للتاريخ، تعلمناها في المدرسة كما لو أنها حقيقة مكتملة لا تحتاج إلى كثير من الاسئلة. بطل هنا وخائن هناك، احكام جاهزة قسمت الشخصيات بين الابيض والاسود، وسهلت حفظ التاريخ اكثر مما ساعدت على فهمه. لكن التاريخ، كما يعرف كل من اقترب من الارشيف، نادرا ما يكون بهذه البساطة. فالوثائق التي تنام لعقود في خزائن البطريركيات والجامعات والسفارات تحمل غالبا وجها آخر للحكاية، وجها لا يُدرَّس لأنه يهدد الرواية الرسمية المريحة.

هذه الاشكالية ليست لبنانية حصرا، لكنها تتجلى خاصة في لبنان بحدة. ففي بلد متنوع مثل لبنان، حيث تتباين القراءات السياسية والتاريخية إلى حد كبير، تصبح مسألة الرواية الوطنية أكثر حساسية وتعقيدا. وحين تكون الرواية الموحدة مبنية على تبسيط شخصيات تاريخية معقدة إلى رموز جاهزة، يصبح كل باحث يعيد فتح الملف أشبه بمن يخلخل اساسا بني عليه سرد وطني كامل.

السؤال الاعمق هنا ليس فقط "من كان اميل اده؟" أو أي شخصية اخرى تعرضت للتنميط، بل: من يملك حق كتابة التاريخ؟ هل هو المؤرخ الذي يعود إلى الوثيقة الاصلية، أم واضع المنهج المدرسي الذي يختصر لضرورات تربوية أو سياسية؟ وهل الذاكرة الجماعية، بمجرد ترسخها عبر اجيال، تكتسب شرعية تفوق شرعية الحقيقة الارشيفية نفسها؟

من هنا تكتسب الكتب التي تعيد فتح الملفات التاريخية اهمية تتجاوز السيرة أو الدراسة الاكاديمية، لأنها تضع الطريقة التي تشكل بها وعينا الوطني امام الاختبار. فحين يكتشف القارئ أن "الخائن" ربما كان صاحب رؤية استراتيجية، أو أن "البطل" ارتكب أخطاء طمست عمدا، لا يهتز فقط تصوره عن شخصية بعينها، بل يهتز أيضا ثقته بالسردية التي بني عليها فهمه لبلده.

في مجتمعات اخرى مرت بحروب اهلية أو انقسامات حادة، انشئت هيئات "مصالحة تاريخية" أو لجان مراجعة مناهج، مهمتها اعادة النظر دوريا في الروايات الرسمية بالتوازي مع تطور البحث الاكاديمي. في لبنان، لا تزال هذه الفكرة غائبة إلى حد بعيد، فتبقى المبادرة الفردية، كجهد باحث أو مؤرخ بمفرده، السبيل شبه الوحيد لمساءلة السردية السائدة وتحديثها.

لعل اخطر ما في هذه العملية هو غيابها شبه الكامل عن التعليم الرسمي. فبينما ينكب الباحثون على الارشيفات لسنوات طويلة، يبقى المنهج المدرسي ثابتا على النسخة المبسطة، فتتوارث الاجيال احكاما جاهزة لم تختبر يوما. ويبقى التحدي في نقل نتائج البحث الاكاديمي إلى القارئ والطالب، بلغة واضحة لا تفقد الدقة العلمية ولا تتحول في الوقت نفسه إلى مادة اكاديمية يصعب تداولها.

الاجابة، ربما، تبدأ من مكان بسيط: أن نتعامل مع التاريخ لا كحقيقة مقدسة، بل كحوار مستمر، قابل دوما لاعادة القراءة كلما فتح أرشيف جديد او طرح سؤال لم يطرح من قبل.

ميرنا الشدياق

◄ امرا باعتقالك قد وصل، وحين تهرب وتستقل "البابور" الى مصر، سآمر العسكر حينها بمداهمة بيتك لالقاء القبض عليك". عاش اميل اده الحرب والمجاعة التي عاشها سكان جبل لبنان خاصة، حيث مات اكثر من ثلث الشعب اللبناني في جبل لبنان. ادرك اده حينها انه لكي يتمكنوا من بناء دولة تمتلك مقومات حياة (فالدولة كالانسان يجب ان تأكل وتشرب)، يجب ان يكون لديها انهار ومرافئ وسهول لتتمكن من الزراعة والاكل والشرب، والمرافئ للاتصال بالعالم الخارجي. بعد الحرب العالمية الاولى وويلات المجاعة، ادرك اميل اده ان "متصرفية جبل لبنان" يجب توسيع اراضيها، واستند في ذلك الى خارطة الجنرال "دو بوفور" لعام 1861 التي وضعها الفرنسيون، والتي تقترح ان يمتلك لبنان سهل البقاع وسهل الدامور وسهل عكار، ومرافئ بيروت وطرابلس.

■ ماذا عن الانهار والمشاريع الاقليمية حينها؟

□ نعم، طالب بالانهار ومن ضمنها نهر الليطاني والحاصباني والعاصي والانهار الداخلية. كان اده عضوا في الوفود اللبنانية الثلاثة لمؤتمر الصلح الذي انعقد في قصر فرساي، كان عضوا في الوفد الاول والثاني (الذي ترأسه البطريرك الحويك)، وكان اده امين سر هذا الوفد الثاني لكنه لم يسافر مع البطريرك بل بقي في لبنان يتعاون معه. في ذلك الوقت كانت هناك مشاريع عدة للمنطقة، فرنسا لم تكن تريد "دولة لبنان الكبير"، بل كان مشروعها "الفيديرالية السورية" (دمشق، حلب، العلويون، جبل الدروز، طرابلس، بيروت)، على ان يبقى جبل لبنان ضمن حدود المتصرفية كما كان ايام العثمانيين. في المقابل كان هناك المشروع العربي الفيصلي (المملكة السورية أو سوريا الكبرى) التي تتألف من سوريا ولبنان والاردن وفلسطين تحت حكم الاسرة الهاشمية. اما اميل اده والبطريرك الحويك فكانا يطالبان بلبنان الكبير بمساعدة الانتداب الفرنسي.

■ ما الذي غيّر نظرة الفرنسيين ليوافقوا على لبنان الكبير؟

□ الحدث التاريخي المهم هو اعلان المملكة السورية في آذار 1920 (التي ضمت فلسطين والاردن ولبنان وسوريا) ، حيث كان لبنان سيبقى

الكتاب.

حليف فرنسا لكنه حليف وطني

ضمنها في حدود المتصرفية فقط (3727 كلم مربعا) مع حكم ذاتي، بينما بقية المناطق اللبنانية تتبع سوريا. هذا الحدث غيّر رأي الفرنسيين، فعقدوا مؤتمر "سان ريمو" مع الانكليز وفرضوا الانتداب الفرنسي على سوريا، والبريطاني على العراق ومصر. حينها شكل الوفد اللبناني الثالث برئاسة المطران عبد الله الخوري وعضوية اميل اده وطالبوا بلبنان الكبير، وقدم اده مطالعته حول الاسباب الاقتصادية لانشاء هذه الدولة، ومنها ان طرابلس وبيروت يجب ان تكونا مع لبنان كمرافئ، وسهل البقاع وعكار والدامور كمدى زراعي، والانهار (خاصة الليطاني) كأمن مائي.

■ يحكى عن لقاءات جمعته بالامير فيصل والحركة الصهيونية، فماذا جرى؟

□ في الوفد اللبناني الاول عام 1919، التقى اده بالامير فيصل الذي قال له: "لماذا تطالب بدولة لبنان الكبير؟ شكلها كحسكة السمكة (سهلة الابتلاع)"، فرد اده: "انتبه يا سمو الامير، كل من يحاول ابتلاع لبنان سيختنق بهذه الحسكة لأنها حسكة بالعرض وليست بالطول". كما التقى برئيس الحركة الصهيونية "حاييم وايزمان" الذي قال له: "لماذا تطالب بالجنوب؟ تخلوا عنه انتم كموارنة لننشئ دولة مسيحية ونحن ننشئ دولة اسرائيل ونتعاون سويا، وتخلّ عن الليطاني"، فرفض اده بشدة ووقف في وجه الاطماع الصهيونية، مصرا على ان الجنوب ونهر الليطاني وصولا الى بحيرة الحولة يجب ان تكون ضمن حدود لبنان. كما طالب (بناء على خارطة دو بوفور) بحدود تصل الى بحيرة حمص.

■ لماذا وسع الحدود الى حمص ووادي النصارى؟ هل كانت اعتبارات وطنية ام حسابات مع الانتداب؟

□ موقفه نابع من اعتبارات وطنية اقتصادية. فسكان وادي النصارى (معظمهم علويون وارثوذكس) كانوا يرفضون الانضمام لدولة دمشق وحلب. وحين اعلن الفرنسيون الدويلات الاربع في سوريا (دمشق، حلب، جبل الدروز، العلويون) وقعوا في مشكلة المنفذ البحري لسوريا، فطالب اهل دولة العلويين بالانضمام للبنان الكبير. اميل اده اقترح عام 1932 جعل طرابلس "مرفأ حرا" تستخدمه سوريا في مقابل رسم سنوي تدفعه للبنان. لقد كان اده يريد حدودا مائية اكثر للبنان من الشمال (بحيرة حمص) ومن الجنوب (بحيرة الحولة).

■ هل كان اميل اده حليفا لفرنسا ام كان يستخدم نفوذها لمشروعه الخاص؟

□ كان حليفا لفرنسا لكنه كان حليفا وطنيا، فاذا اخطأ الفرنسيون كان يواجههم. اعترض عام 1924 على تعيين حاكم فرنسي وطالب بأن يكون الحاكم لبنانيا. وحين ترشح هو للمنصب عام 1924، قام المفوض السامي موريس سراي بحل المجلس التمثيلي لمنع وصوله وعين ليون كايلا بدلا منه. كما طالب بالمعاهدة اللبنانية - الفرنسية عام 1936 لنقل لبنان من الانتداب الى الاستقلال بحماية فرنسا. كان حليفا شريفا وصريحا لأنه كان يدرك الاطماع السورية والصهيونية في لبنان منذ عام 1919، ويرى ان الاستقلال يجب ان يكون بضمانة دولية (فرنسا) تحمينا من اسرائيل التي ستنشأ ومن سوريا.

■ ماذا عن موقفه من استقلال 1943 وتسلمه السلطة؟

□ اده اخطأ التقدير "شكليا" بقبوله السلطة بينما رجالات الدولة في السجن. لكن دافعه كان هواجسه على مستقبل لبنان، كان يريد استقلالا مع "معاهدة دفاعية" تضمن قواعد عسكرية فرنسية تحمي لبنان من الاطماع الخارجية (سورية واسرائيلية مستقبلا). كان يريد تجنيب لبنان مشاكل مستقبلية كبيرة، وهو ما اعترف به النائب عادل عسيران لاحقا حين قال: "لو كنا وقعنا معاهدة مع فرنسا كما كان يريد اميل اده سنة 1943 لما كنا اليوم في هذا المأزق الحرج ومتروكين من الجميع، ولما حدث احتلال اسرائيلي لبيروت في العام 1982، ولجنبنا لبنان مشاكل وحربا اهلية". الخلاف مع بشارة الخوري كان سياسيا استراتيجيا، اده كان ينظر إلى مستقبل لبنان لـ 50 أو 100 سنة، بينما بشارة الخوري كان يريد أن يكون بطلا قوميا في لحظتها.

■ هل كان اميل اده ديموقراطيا ام متسلطا؟

□ كان ديموقراطيا بدليل استقالته الطوعية من الرئاسة عام 1941 بسبب ازمة القمح، مفضلا ان "يأكل الشعب" على بقائه في السلطة. كما طبق اللامركزية الادارية وحارب الفساد. حكومته (تشرين الاول 1929 - آذار 1930) سقطت في البرلمان لأنه حاول خفض مخصصات النواب لتحقيق اصلاح مالي. كما انه دعم الشيخ محمد الجسر (المسلم السني) للرئاسة عام 1932، مما يثبت انه لم يكن فئويا طائفيا. في الخلاصة، اميل اده لم يكن خائنا، بل كان صاحب رؤية استراتيجية استباقية لحماية الكيان اللبناني، وان شابت طريقته في عام 1943 بعض اخطاء التقدير السياسي، "فالغاية تبرر الوسيلة" كما يقول ماكيافيلي. في الختام، اوصي بالمبادرة الى تنقيح المناهج المدرسية من الاخطاء التي شابت سيرة اميل اده، اذ ان هذا الاصدار يقدم المادة العلمية الكفيلة بتصويب تلك المفاهيم لدى الاجيال الناشئة والمقبلة.

م. ش

صورة نادرة للرئيسين إميل إده وبشارة الخوري.

إميل إده في احتفال عيد الاستقلال عام 1937.

إميل إده والجنرال كاترو في 16 تشرين الثاني 1943.

رسالة من إميل إده الى البطريرك الياس الحويك في 27 أيلول 1921.

حكومة إميل إده.

رهون إده الى جانب والده خلال ترؤسه الحكومة سنة 1929.

إحاطة شعبية بسيارة الرئيس إميل إده ورئيس الحكومة خير الدين الأحدب سنة 1937.

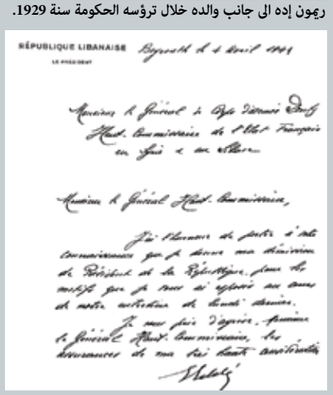

استقالة إميل إده.

خارطة دولة لبنان الكبير كما أرادها إميل إده.